منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الهدف للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5944) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (16) تموز 2025

عادل زعيتر

شيخ المترجمين

من يذكرعادل زعيتر؟

د. محمد المهدي

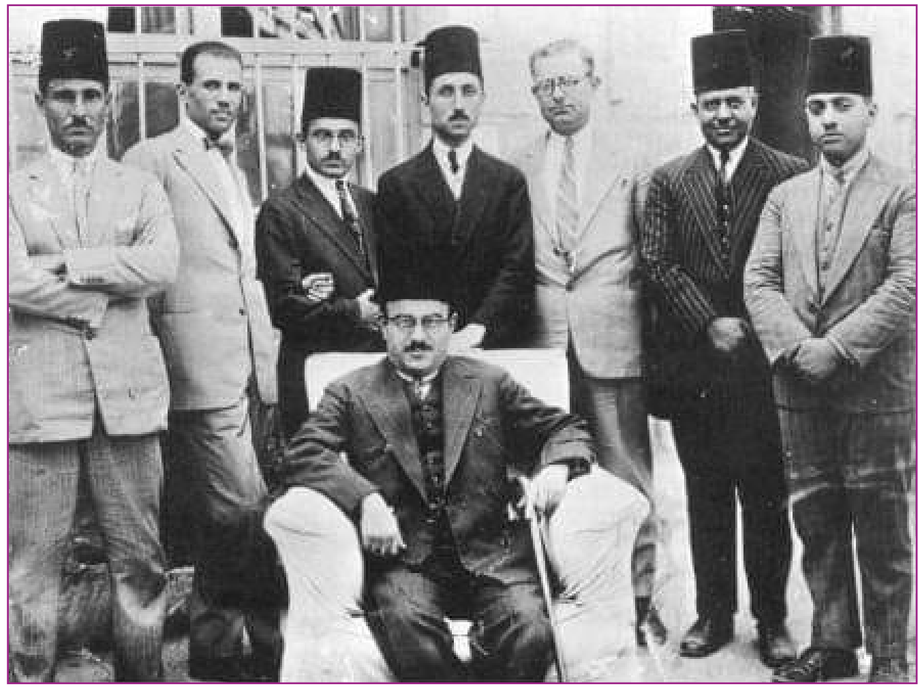

حالة يعللها البعض قائلا: لابد من الصدمة حتي تكون الصحوة، ولكنه عزاء لاينفي الحقيقة. حقيقة ماداخل النفوس من نزعة قبلية، من تباين، وتفارق، والتهاء بأي صورة كانت. هل نعكس القول فنقول (يعملها الكبار الكبار رسميا ليقع فيها الصغار). يالها من طريقة للاحتفال بعام وثيقة الاطفال. تصادف ان انشغلت في هذه الأيام بتأمل لوحة العالم العربي في زمان كانت البقع البيضاء تمتد داخل نسيج اللوحة فتمحو حدودا اصطنعها الانجليز، والفرنسيون، واليهود، ويدافع عنها البعض الآن، ويوثقونها في اتفاقيات دولية، وكأنها حدود طبيعية.

ظاهرة ان يرتاد القاهرة ساطع الحصري، ومصطفي جواد، وجبران خليل جبران، وعبدالله المشنوق، وعادل زعيتر، وايليا ابوماضي، وبدوي الجبل، وفدوي طوقان، وخير الدين الزركلي... وغيرهم كثيرون. وان يرتاد العقاد، وطه حسين، والمازني، والزيات، وابراهيم ناجي.. وغيرهم عواصم البلاد العربية. واعذروني ان جعلت القاهرة محورا فجميعنا يعرف الاسباب.

عادل زعيتر نموذج لظاهرة ترابط الشعوب العربية فكرا وعملا. كان من نابلس، وكان عضوا بالمجمع العلمي العراقي، وعضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق. علي صلة دائمة بالقاهرة حيث الادباء والمفكرون والمطابع. طبع فيها السبعة والثلاثين مجلدا وكتابا التي قام بترجمتها وشرحها وتحليلها، جعلها متسقة في التتابع الفكري، والاحكام في الصياغة العربية الرصينة.. كان يضيف ان يقدم كاحد ابناء نابلس، فهذا انتساب يحصره في بقعة محلية، ويقلل من جهده العربي. كان يردد حينما يري هذا الجهد منسيا:

ان تسأل الايام عني مادرت واين مكاني ما عرفن مكانيا!

ولاندري اي بيت من الشعر كان سيردد لو عاش الي زماننا حيث اصبح النسيان فلسفة عند أهل الاعلام، وحكمه عند أهل السياسة، وحجة للتكاسل عند غالبية الناس..

كان يردد أيضا قول الغزالي:

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد لغزلي نساجا فكسرت مغزلي.

ولم يكسر المغزل. كانت لحظة أسي لم تنسه وعدا قطعه علي نفسه. حكي لنا أخوه المناضل الراحل اكرم زعيتر، انه ضل في مطلع شبابه في الصحراء وهو في طريقة للأمير فيصل بن الحسين عام ١٩١٦، وكاد يهلك، وحينما نجا من الموت نذر نفسه لخدمة أمته.

ولكن لماذا أراد زعيتر الاتصال بفيصل بن الحسين؟ هذا تبدأ قصة هذا المناضل موزعة ومتسقة بين صراعات امته، وصراعاته الشخصية امام الهوة الغاصبة. وبين صراعات امته وصراعاته الشخصية امام حضارة وافدة قوية.

ولد عادل زعيتر عام ١٨٩٧ ويحكي لنا المستشرق الانجليزي (ستانلي لين بول) في كتابه (القاهرة) ان الاوبرا التي انشأها اسماعيل باشا في القاهرة عام ١٨٦٩ بمناسبة افتتاح قناة السويس، كان لا يجرؤ عليي ارتيادها في بدايء الامر الا اصحاب القبعات، ولكنه لاحظ في نهاية القرن ان الطرابيش بل والعمائم بدأت تظهر بين المرتادين.

هذا الحادث يرمز لتطور فكرة الاتصال بين الشرق والغرب، الذي بدأت بوادره مع حملة نابليون علي مصر عام ١٧٩٨ في بادءي الأمر استنكر رجال الأزهر، والفكر الحضارة الغربية رغم انبهارهم بها، ثم كانت مرحلة الاستفادة من الجوانب المادية لهذه الحضارة علي مستوي السلطة، تبعها ظهور الصفوة العربية المتطلعة الي الاستفادة من الجوانب الادبية مع الاحتفاظ بالطابع الديني او القومي مثل الطهطاوي، والبازجي، والبستاني، واحمد فارس الشدياق، وخير الدين التونسي ومحمد عبده، وعبدالله النديم وغيرهم، وتمثل في نهاية القرن تطلع الفرد العادي للاتصال بالحضارة الغربية بالاصالة او بالمسخ. توزعت الاتجاهات بين المتجة الي الغرب قلبا وقالبا، او المتجه الي الغرب ليرد نفسه الي الشرق، او الرافض للغرب متجها لفكرة الخلافة الاسلامية، او المتجه وجهه الحركة الطورانية لتتريك العرب، او المتجه للفكر القومي العربي. توسعت وسائل النشر في مصر، والشام، والعراق لطرح هذه الاتجاهات فوصلت الي مايزيد علي ١٣٣٣ جريدة ومجلة عندما بدأت الحرب العالمية الاولي. منها (الاهرام) و(الهلال) في مصر، و(نفير سورية) في سوريا، و(الزوراء) في العراق.

ولد عادل زعيتر مع احتضار القرن التاسع عشر. او ولد مع مولد القرن العشرين. او ولد مع مولد تحرك الفكر القومي العربي بل ما احتوته هذه الفترة من تضاربات، وصراعات مع القوي الاستعمارية، والحضارية. وبعد مرحلة الدراسة الابتدائية والاعدادية يستكمل في الكلية السلطانية بالاستانة فيتقن التركية، ولكنه لايذهب معها ابعد من الاعجاب الادبي، اما الحضاري او القومي فانه يرفض التجنيد العثماني بعد عودته فيهرب من هو الجندية التي تفرض عليه قتال الثورة العربية عام. ١٩١٦ وبينما هو في متاهة البادية للوصول الي دمشق للانضمام الي فيصل ابن الحسين يصدر عليه حكم غيابي بالاعدام عام. ١٩١٧ وعام ١٩١٧ نعرفه، فبينما شباب العرب يعقدون الآمال علي ثورة الشريف حسين التي زحف بها ابنه فيصل من الحجاز للعقبة لشرق الاردن، لدمشق مكتسحا القوات العثمانية آملا في الاستقلال بوعد انجليزي. كان الانجليز يرون الامور بمنظارهم الخاص. كانت هناك اتفاقيات (سايكس بيكو) لتقسيم المنطقة بعد الانتصار علي الالمان و العثمانيين، بينهم وبين حلفائهم الفرنسيين. اما اليهود فاخذوا نصيبهم من النهبية بوعد (بلفور) عام ١٩١٧.

تنتهي الحرب العالمية الاولي وعادل زعيتر في دمشق. ينتظر كغيره الاستقلال، ولكنهم يكتشفون ان فيصلا يفاوض (كلمنصو) رئيس الحكومة الفرنسية، فيعلنون الاحتجاج في المؤتمر السوري الذي ضم سوريا، ولبنان، والاردن، ويمثل عادل زعيتر فلسطين في هذا المؤتمر الذي يعلن استقلال الشام في مارس. ١٩٢٠ ولكن قوات (جورو) الفرنسية علي الايواب لتمهلهم الا اقل من ثلاثة شهور وتجبرهم علي معركة (ميسلون) في يوليو عام ١٩٢٠ التي تنتهي باحتلال دمشق.

وتظل بطولات (ميسلون) عالقة في ذهن عادل زعيتر، ولكن الاحباط كان اشد علي نفسه فدعاه إلي هجرة الشام لاستكمال تعليمه في جامعة باريس.. تعتبر هذه المرحلة حاسمة في فكر عادل زعيتر. فقد حددت مساره و لانبالغ اذا قلنا الي نهاية حياته. لقد كانت صدمة (ميسلون) قوية. كان من الممكن ان ترده معاديا للغرب بكامله، ولكن اتزانه الفكري، وسعة أفقه الثقافي دفعاه الي الغرب للتزود بالسلاح الذي قهر به الشرق... العلم، والعلم في نقائه تفكير موضوعي يقتضي الدقة.. والاتقان، والتبتل، وايضا التجرد. ودفعته العناصر الاولي الي ان يلتزم في حياته بنظام دقيق حتي في مظهره، ولكنه اغرق في تبتله، وفي تجرده فقصر جهده علي الترجمة معلنا انه لن يكتب مؤلفا ولن يتوقف عن رسالة الترجمة الا حين يري العرب المعاصرين يكتبون بمستوي ما يقرأ عن كتب الغرب. وكانت موضوعية طالما لنفسه ولغيره، فما كتبه من مقدمات للمجلدات والكتب التي ترجمها ترفع من قدره، وتجعله يصل دون ان يدري لفرط تواضعه لمستوي مؤلف الكتاب الذي يترجمه. بل لانبالغ اذا قلنا انه تفوق علي بعضهم.. اما دقته النادرة وتمكنه من اللغة الفرنسية التي تخصص في النقل عنها، واللغة العربية التي ينقل اليها، فترفع ايضا دون ان يدري من قدرته العلمية علي اختيار اللفظ الدقيق، وايضا الانيق، والعبارة التي تأتيك بالمعني اذا امعنت فيها وقارنتها بالاصل دون التباس. بل لتجده في كثير من الاحيان يرفع بلفظه الدقيق بعض الغبار عن الاصل الغامض من خلال جهده في تتبع فكر صاحب الكتاب، ودراسة مؤلفاته الاخري. أما صفة التجرد فقد وضحت في اختياره التي تستحق النقل الي العربية. كانت غالبيتها لكتاب فرنسيين حرك جهدهم الفكري الثورة الفرنسية.. (مونتسكيو) و(جان روسو) و(فولتير) واذا كان نابليون قد حول فكرهم القومي الي عنصرية باجتياحه الشعوب الاخري، واستمرت فرنسا السياسية علي هذه المسيرة حتي بعد رحيله بقرن كامل، فليردها زعيتر الي اصلها نقية لصالح قومه.

بعد عامين من وصول (زعيتر) الي باريس يبدأ رحلة الترجمة، ويثير اعجابه مؤلفات (جوستاف لوبون) خاصة كتابيه الجامعين (حضارة العرب) و(حضارة الهند) لما تميزا به من طابع ميداني، وعلمي، وموضوعي. وشجعه للقيام بمهمته اتصاله الشخصي بالمؤلف. وسبق فتحي زغلول شقيق الزعيم سعد زغلول لترجمة كتابين ل(جوستاف لوبن) ظهرا تحت عنوان (روح الاجتماع) و(سر تطور الامم). ثم اعاد زعيتر ترجمتها تحت عنوان (روح الجماعات) و(السفن النفسية لتطور الامم).

أما الكتاب الاول الذي شرع في ترجمته فكان (روح الاشتراكية). ويكتب الي والده شارحا كيف يقضي اجازته الصيفية فيقول (شرعت في ترجمة كتاب روح الاشتراكية، وأن كان مؤلفا من خمسمائة صفحة كبيرة، اي انه يزيد علي مجموع صفحات كتابي ‹روح الجماعات› و‹سر تطور الامم› بمائة صفحة، وبعد مرور مائة يوم من تاريخ الشروع في الترجمة أتممت ترجمته، وعلي ذلك اكون قد ترجمت كل يوم خمس صفحات.. وقد كانت ترجمة الصفحة الواحدة مع تبييضها تستغرق معي ساعة ونصف الساعة، واني أؤكد لكم بانني لم اذق طعم الراحة ايام الترجمة).

ثم يقول:

وللدكتور جوستاف لوبون كتابان اخران هما ‹روح التربية› و‹روح الثورات›. وقد عدهما العلماء خير ما كتب في موضوعهما. وبما ان الواجب يقضي علي بأن اترجمها الي العربية، فانني شرعت في ذلك.

ولعلنا نلاحظ في رسالته هذا الحرص علي حساب الزمن الذي يقضيه في جهد الترجمة. ويذكر الراحل اكرم زعيتر ان هذه الخاصية لازمته دوما، فكان يذكر أن كتاب (حضارة العرب) قضي فيه الفين وخمسمائة ساعة، وكذلك في كتاب نابليون ل(اميل لودفيج). وقضي ثلاثة آلاف ساعة في نقل كتاب (حضارة الهند) خلال خمسة أشهر، وستمائة ساعة في ترجمة كتاب (الالهة عطاشى) ل(انا تول فرانس)، ويدور حول الثورة الفرنسية. لقد كان زعيتر يشعر انه في صراع مع الزمن امام الجهد المطلوب، والجهد المطلوب هو تكوين مكتبه كاملة من كتب جادة عميقة متنوعة من فلسفية، وسياسية، واجتماعية، واسلامية، وقومية، وحضارية، وتربوية. لقد كان يأمل ان يصل الجهد الي انتاج مترجمات تصل في رصها الي طول قامته كما كان يقول.

ما الذي اراده عادل زعيتر؟

هل اراد ان يقوم بدور وجهد لاتقوي عليه الا المؤسسات العلمية باجهزة من عقول وامكانيات؟

لقد كان نموذجا لهذه البطولة الفردية التي تميز بها كثير من مفكري مطلع القرن الماضي، حينما واجهوا قوة الغزو العسكري والحضاري مع غياب السلطة القومية، او مع حضور السلطة الرجعية التي زادت من دفعة الريح استعمارية العاتية في مواجهة هؤلاء الابطال عاد عادل زعيتر الي نابلس ١٩٢٥ ليواجه هذه الريح، في مصر قامت ثورة ١٩١٩، ولكنها تهدد من القوي الرجعية. وفي العراق يظهر الملك فيصل عام ١٩٢١ كملك من ورق بعد ان اختفي من الشام. وفي سوريا تقوم ثورة ١٩٢٥ بقيادة سلطان الاطرش. وفي فلسطين يشهد المأساة بنفسه. لقد سبقه تشرشل عام ١٩٢١ الي زيارة فلسطين محاولا الحفاظ علي مصالح انجلترا بالتمويه علي العرب واصدار مايعرف بالكتاب الابيض عام ١٩٢٢، وبالاتفاق مع اليهود لاستمرار الهجرة الي فلسطين، وتستمر عملية التسريب اليهودي الي فلسطين، مع عمليات التمويه علي العرب، الي ان انكشفت الامور حينما حاول اليهود نصب ستار علي حائط المبكي بالمسجد الاقصصي مدعين ملكيته فاندلعت احداث عام ١٩٢٩.

عادل زعيتر يشترك في الاحداث، ويعي مايدور. لقد تفرغ في هذه الفترة للعمل بالمحاماة مع التدريس في معهد الحقوق بالقدس، والكتابه الصحفية الملتهبة يقف مدافعا عن المتهمين في احداث ١٩٢٩ في نابلس، وصفد. ويشترك في مؤتمري نابلس عام ١٩٣١، والقدس عام ١٩٣٣ داعيا في المؤتمرين الي الاستقلال وايقاف الهجرة اليهودية.

وتتوالي الاحداث، ثورة عز الدين القسام. ١٩٣٥ الثورة العامة في فلسطين عام. ١٩٣٦ يتدخل الملوك العرب سعود، وغازي، وعبدالله داعين لايقاف الثورة انتظارا لوعود انجليزية، تمخضت كما هو معروف عن مشروع تقسيم عام ١٩٣٧، وكتاب ابيض ثالث عام ١٩٣٩. وتهيء انجلترا نفسها خلال الحرب العالمية الثانية للانسحاب من فلسطين بعد ان اطمأنت علي الامتداد اليهودي في اراضي فلسطين،وبعد ان وجدت مصلحتها في استلام راية مساندة اليهود للولايات المتحدة الامريكية.

ويبدو ان استمرار خطي الثورة الشعبية مع التخاذلات الرسمية قد ارجعا زعيتر الي حالته النفسية التي واجهها بعد معركة (ميسلون) عام. ١٩٢٠ ولكن حدسه هذه المرة الذي تمرس بالتجارب العديدة جعله يتوقع النتيجة الحتمية قبل وقوعها فكتب عام ١٩٤٦ الي اخيه اكرم قائلا: لا ادري مابقي لي من عمر ويكاد قلبي يحترق من انني لم اقم بشيء مما تطفن اليه نفسي في عالم العلم والسياسة، فترونني عازما علي تطليق المحاماة، وسلوك السبيل الذي كتبت لك عنه.

وينقطع زعيتر لجهد الترجمة فيستكمل كتب رجال الثورة الفرنسية، وبقية مؤلفات (جوستاف لوبون)، وكتابين ل(انا تول فرانس)، و(ابن رشد) ل(رينان).. والعديد من مؤلفات (اميل لودفيج) و(حياة محمد) ل(اميل درمنجم). و(ابن خلدون) ل(بوتول) و(الغزالي) و(ابن سينا)، و(مفكرو الاسلام) ل(كرادوفو) وغيرها. ولكنه لم يكسر مغزله السياسي. فاذا كانت مرحلة الانعزال العلمي الاولي في باريس لم تعزله عن صلته باهلة، فالاولي بهذه المرحلة الثانية من الانعزال العلمي ان تقوي من دوران مغزله. فاقامته في نابلس والاحداث، بل المأسي التي تدور حوله جعلته يمزج من نسيج انتاجه بين خيوط الانتاج العلمي، ومايسمح به الوقت والجهد النفسي بالمشاركة السياسية. لقد ظل بيته مركزا لتجمع من يدركون خطورة المأساة فيكتب في ١٩٤٨/١١/٥ مذكرة وطنية تحت عنوان (نكبة فلسطين) ويوجهها الي المسئولين في مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، والاردن، والسعودية، واليمن، وامين الجامعة العربية، والهيئات الشعبية، يأتي فيها:

(ويظهر أن العوامل الاقليمية تحتل المكان الاول لدي طائفة الدول العربية، فلا تري هذه الدول ان تتخذ اي تدبير حازم تجاه ما للدول الاجنبية التي تؤازر اليهود من المصالح الاقتصادية في بلاد العرب، وان كانت تلوح في الحين بعد الحين بتهديدات لاتجوز حتي علي الولدان. والعرب بلغوا من الخور في الانتصار لقضيتهم الكبري، ماجعلهم يطالبون مجلس الأمن بالانتصاف لهم من اليهود، ودرء اعتداء هؤلاء عنهم!.

ومن بيته ايضا تصدر في ١٩٤٩/٥/٢٥ مذكرة اخري تحت عنوان (كارثة المثلث). تقدم للملك عبدالله تعليقا علي اتفاقية (رودس) يهاجم فيها النظام المصري واللبناني والاردني والعراقي انذاك، فيقول عن موقف الحكومة المصرية (انها لم تتمسك بما قرره مجلس الامن من عدم احتفاظ أي فريق بالاراضي التي احتلها بعد ١٥ تموز ١٩٤٨ فقبلت ان يستولي اليهود حتي علي (الفالوجا) وما حولها سلما، فأدي ذلك إلي خسران عرب فلسطين مئات الألوف من الدونمات، وتشريد عشرات الألوف منهم، ويقول عن موقف الحكومة الاردنية:

(وكان الطرف الاردني لم يكتف بموافقته علي اقتطاع نحو نصف مليون دونم من اجود الأراضي الي اليهود بدون مقابل معقول، فقد وقع اربعة من وزراء الأردن علي خريطة اقتطع اليهود بموجبها حوالي عشرين الف دونم زيادة علي مئات الالوف من الدونمات التي اخذوها وفق اتفاقية رودس فكان لنا بهذا ان نطالب بالتحقيق بالامر).

ويقول عن موقف الحكومة العراقية بعد قرار الانسحاب من فلسطين: ذهب وفد من فلسطين لكي يقصد بغداد آملا حمل حكومتها علي تلافي مافات، ويجتمع الوفد الفلسطيني في عمان بوزير الدفاع العراقي ورئيس اركان حرب الجيش العراقي فلم يوفق فيما ذهب من اجله فقد رفض الموصي اليهما طلب بقاء الجيش العراقي مرابطا في فلسطين ومع ابداء مايدل علي منع الوفد الفلسطيني من زيارة العراق.

ومع المرارة التي كان يحملها واصل عادل زعيتر جهوده العلمية موزعة بين رحلة الصيف في نابلس يعد فيها حصاد العام، ورحلة الشتاء الي القاهرة يخرج فيها هذا الحصاد مطبوعا الي ان كانت النهاية في نوفمبر عام ١٩٥٧، وهو يجاهد لاتمام الصفحات الاخيرة من كتاب (مفكرو الاسلام) وذهب الرجل بحسرتين، الأولي ضياع فلسطين، والثانية الافتقار الي التقدير الذي يوازي جهده وعمله. ولو عاش الي زماننا لذهب بحسرات عديدة. أو لعانى من تضخم الحسرة الأولي حينما يجد يهود اسرائيل يدخلون العواصم العربية أما رسميا أو بمظلة امريكية، وتضخم الحسرة الثانية حينما نسأل شابا جامعيا هل تعرف عادل زعيتر؟ فينظر إلينا في استنكار الجاهل الواثق من جهله لهذا الاهتمام الساذج.

قالوا عن عادل زعيتر

‹وانما حسبي ان اقرر انه هو الذي رد الي الترجمة اعتبارها بعد ان هبط بها المرتزقة، والمأجورون، وصنائع الاستعمار الفكري، وان الذي وقف في غمرة الظلمة الداجية يحمل المشعل بيده الكريمة ليضيء لقومه العرب طريق الحق والخير والعزة.. وماكان مشعله المضيء سوي قلم قوي، نبيل أصيل يستمد قوته ونبله من عقل راجح، وضمير حي، وقلب كبير، وذكاء ساطع›. (د.بنت الشاطيء).

‹وإذا كانت الترجمة وسيلة من وسائل التقارب بين الامم فقد كان عادل زعيتر الوسيط الأول في العالم›. (عبدالله المشنوق).

‹كان عادل زعيتر دقة في الترجمة. كما كانت فيه اصالة في التعبير، وفحوله في التركيب، وضلاعه في اللغة›. (محمد عبدالغني حسن).

‹ترك عادل زعيتر بموته فراغا في المجتمع العربي، والمجال العلمي، والميدان الثقافي لايسده احد›. (د.مصطفي جواد).

‹كان عادل زعيتر جامعة وحدها، ومجمعا وحده، ومثل عادل زعيتر ظاهرة لاتتكرر في كل قرن من الزمان›. (وديع فلسطين).

‹كان لدقة عادل في الترجمة منصب يجوز ان تشرئب إليه الاعناق. هو منصب استاذ في جامعة راقية›. (اكرم زعيتر).

٠ عن موقع ايلاف

عادل زعيتر مترجما

يحيى جبر

من أعيان التراجمة في هذا العصر عادل زعيتر، وهو يحتل مكانا رفيعا بين المترجمين، ويمتاز أداؤه عن غيره بعدد كبير من الصفات الحميدة، ونستعرض في ما يأتي جملة ما أسهم في تكوين كفاءته ومكنته، وما ارتقى به وبعمله هذه المكانة العالية.

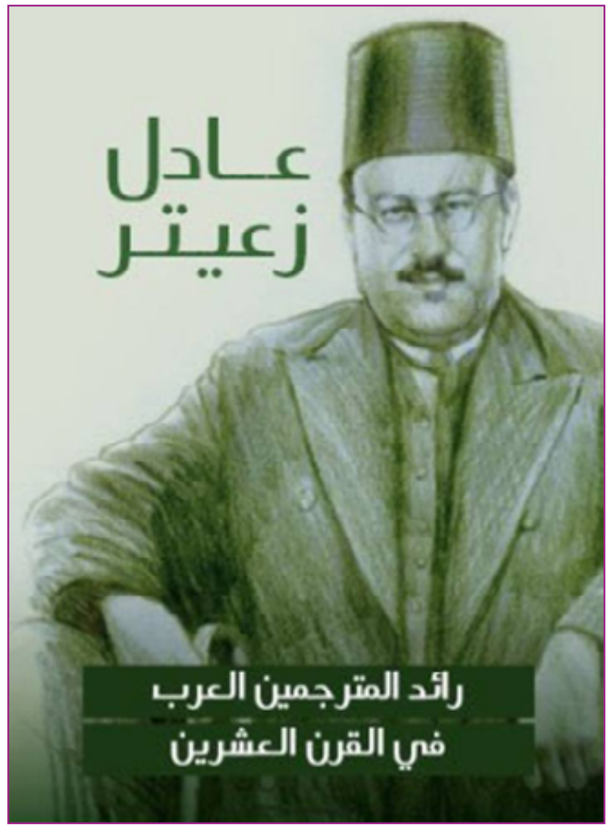

أولا: علو همته وإصراره وذكاؤه.

فقد عرف عنه أنه كان يأخذ نفسه بالعزيمة منذ صغره، وكان متفوقا في دروسه "فلقد كان دوما من الأوائل في دراسته وفي إتقانه لما يتعلم من علوم أو لغات، أو ما يقوم به من عمل وجهد." (الكيلاني ص ٣) وفي عام ١٩٤٦ وقد شارف على الخمسين من عمره، أحس بانقضاء أكثر العمر، ومن يدري ما تبقى منه؟ فقرر اعتزال المحاماة والاعتكاف كليا في صومعته مكرسا وقته وجهده وحياته وماله للترجمة، وحبّ أقول وقته وجهده فلقد كان ذا طاقة جبارة يعمل في مكتبه بين القراءة والكتابة والتنقيب عن الكلمات والمعاني بمعدل اثنتي عشرة ساعة يوميا يكاد خلالها لا يأكل ولا يشرب ولا يقابل أحدا" (الكيلاني ٣) وفي هذا ما يشير إلى انه كان طوال عمره على وتيرة واحدة من الجدية والاجتهاد. ويعبر صديقه محمد علي الطاهر عن هذه الروح التي امتاز بها عادل فيقول: "إن عادل حين تبتل للعلم كان قد عزف عن مباهج الدنيا وعن السياسة منذ رأى الدجاجلة يظهرون، وأهل الغوغائية يبرزون، وأهل الحمى يهملون، فتقزّزت نفسه من سوء ما رأى، ونأى بخلقه القويم عما يتهافت عليه أبناء جيله... لذلك انصرف عادل عن المحاماة وكان من أعلامها، ونذر نفسه للقلم بمهمة تنوير العقول وامنارا القوم، وسوف يعجز كل من يأتي بعده، وسيحير الذين يتصدون بعده للترجمة ونقل علوم الغير من لغة إلى لغة، وما مات عادل ولحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن قام بما تعجز المجامع العلمية عن القيام به، ونأب عن الجامعات في تقريب العلم إلى الناس، بل قام وحده بما لم تستطع الحكومات أن تقوم به" الطاهر ٣٤٥، ٣٤٦.

وفي هذا المعنى يقول محمود الأرناؤوط (٢٣، ٢٤) "واستطاع أن يتحول بدأبه وجهده وصبره وكفاحه إلى علم من أعلام الأمة الخالدين وان ما استطاع أن يقدمه إلى قراء العربية من نفائس الأعمال العلمية الرصينة لجهود من عمالقة الثقافة في فرنسا في العصر الحديث، بلغة راقية، وأسلوب عالي المستوى، ليشهد له بالعبقرية والنبوغ.

فهذه شهادات توضح ما كان عليه زعيتر من الإصرار والعزيمة وبعد الهمة، مما أتاح له ما لم يتح لغيره فكان في عصاميته واعتداده نسيج وحده.

ثانيا: تبحره في الثقافة الأجنبية

امتاز عادل زعيتر بسعة اطلاعه وإقباله على المعرفة بنهم شديد، فبعد احتلال الفرنسيين لدمشق غادرها إلى باريس ليدرس القانون، "وهناك تشرب الثقافة الفرنسية، وقرأ أعمال المفكرين السياسيين الفرنسيين قراءة مستفيضة" أبو غزالة ٤٣ وقد مكنه من ذلك إتقانه للفرنسية والإنجليزية والتركية، مما أتاح له فرصة الاطلاع على أداب الشعوب الناطقة بها الإحاطة بعلومها وإنجازاتها.

"إن الثقافة العالية الرفيعة التي وصل إليها عادل زعيتر بجده وسهره ونشأته في المحيط الوطني المجاهد الذي عاش فيه، مع تمكنه من نواصي اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية جعلته يملك زمام موضوعه بهذه الأدوات العلمية التي قل أن يظفر بها أحد من المعاصرين" الطاهر ص ٣٤٥ ومما يشهد بهذه الحقيقة ذلك المستوى الرفيع من الأداء الترجمي، وذلك التنوع في موضوعات الكتب المترجمة على الرغم من انه يعد في مجلة المتخصصين على نحو ما سنوره لاحقا.

ثالثا: البعد القومي

لم يكن عادل زعيتر ينطلق من فراغ، ولم يقم بما أنجزه دون حافز، بل انه لم يندفع إلى عمله استجابة لمآرب خاصة، بل كان حاديه في كل ما فعل هو ما كان عليه وضع الأمة من سوء، وتكالب القوى الاستعمارية عليها، وتردي أحوالها، وتخلفها الثقافي، بعبارة أخرى، لقد كان عمله مسيّسا يهدف به إلى رفع شأن الأمة، ولذلك راح يترجم للأعمال التي أثرت عميقا في المجتمع الأوروبي عموما، والفرنسي خصوصا، أملا في أن تحدث تلك الأعمال في شعبه ما أحدثته في الغرب.

"إن الرسالة التي اختارها من أبواب الفكر والفلسفة، وليست من نوع تجاري ليملأ جيبه من ورائها في روايات وأقاصيص أو ما سهل علاجه من الترجمات، بل تعلق بغرض هو أسمى ما تتطاول إليه عقول نقّاد الأفكار من كل حضارة.. ولكنه حدد رسالته وعينها، ووثق من حاجة أمته إليها، وأمن من نفسه الكفاية العلمية لأداء هذا الغرض على أتم وجه وأنفعه وأبدعه. فكان في اختياره كتابا للترجمة يُعنى بأن يكون مما تحتاج إليه الأمة العربية، وإلا يكون له نظير في لغتها..." الأرناؤوط ٢٨، ٢٩ انه بذلك يستحق أن يوصف بأنه كان قيّما على الأمة يرعاها بما أوتي من جهد، ويسهر على مصالحها أملا في إصلاح ما يمكن إصلاحه من شأنها.

ويتضح البعد القومي في سيرته بحرصه على ترجمة بعض الكتب التي كان "يعتقد بوجوب نقلها إلى العربية، وكان يرجو أن تتيح له الأقدار عمرا يستطيع فيه أن يتولى هو هذا النقل ككتاب سير الأبطال لبلوتارك.. الذي كان يعجب به كل الإعجاب، ويرى أن ترجمته ضرورية، ويتحسر لأ يقرأ الغرب هذا الكتاب لخالد.. (الأرناؤوط ص ٣٥) وشبيه بذلك ما ورد في مقدمة ترجمته لكتاب بسمارك من قوله (ص ٣) "نقدم هذا الكتاب إلى الأمة العربية في وقت هي في اشد الاحتياج إلى مثله، فلعل العرب يبصرون من مطالعته كيف تقام الجامعات، وكيف توحد الشعوب والدول على أسس صحيحة.."

وكان عادل زعيتر حريصا أشد الحرص على ترجمة الكتب التي انصف مؤلفوها الأمة الإسلامية وعلماءها، على طريق بعث أمجاد الأمة، وبيان فضلها بشهادة الأجانب، فقد جاء في مقدمة ترجمته لكتاب حضارة العرب لمؤلفه جوستاف لوبون (ص ٧) "أكون قد أدخلت كتب لوبون المهمة الأخذ بعضها برقاب بعض إلى العربية إدخالا يخيل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب، فلوبون واضع سفر "حضارة العرب" وأكثر من ذلك، فقد كان عادل زعيتر "يعني بالرد على كل خطأ يقع فيه المؤلف خاصة إذا اتصل بتاريخنا" الجندي – تطور الترجمة ص ٧٧ والنثر العربي ص ٥٦٨.

لقد آمن عادل زعيتر بأن تحرر الأمة رهين بقيادة سليمة، وبتنظيم دقيق لحركة وطنية بين العرب، "فقرر أن يضع تحت تصرف الزعماء الوطنيين الفلسطينيين خلاصة الأفكار الأوروبية في القومية، ولذلك فقد خصص جل وقته للترجمة، ولكونه متشربا الثقافة الفرنسية ومؤمنا بان فكرة القومية الحديثة نشأت في فرنسا، فقد ترجم للكتاب الفرنسيين المشهورين بشكل خاص" أبو غزالة ص ٤٤. وقد عبر أبو غزالة عن هذا التوجه لدى عادل زعيتر في موضع آخر من كتابه "الثقافة القومية في فلسطين" بقوله "ولا يزال هناك مظهر آخر للنهضة الأدبية في فلسطين تحت حكم الانتداب، هو ترجمة المؤلفات الغربية من الإنجليزية والفرنسية غالبا، وتعكس هذه المترجمات الوعي الوطني لدى المترجمين، لقد حاول بعض هؤلاء الرجال، مثل عادل زعيتر، أن يعرفوا أبناء بلدهم (وأمتهم) على الفكر السياسي في الغربي في الحكم الشعبي وأفكار أخرى حول الحكومة" (ص ٩٢).

أجل، لقد كانت الترجمة عينا أخرى على الغرب، وكانت أعمال عادل زعيتر أجلّ ما وقعت عليه تلك العين، وما نرى إميل توما إلا قاصدا أعمال عادل زعيتر في مقالته "مدخل البحث في الثقافة العربية" (الجديد ص ٦) حيث قوله "كما أن هذه الثقافة لم تتقوقع في التراث القديم على الرغم من ظهور دعاة إلى ذلك، بل أثرت الانفتاح على الثقافة الأوروبية، واستوعبت مبادىء الثورة الفرنسية وأقبلت على نتاج الأدباء والمفكرين وبخاصة الفرنسيين والروس".

ولم يكن عادل زعيتر يرى فاصلا بين الدين والقومية، بل كان في توجهه القومي مسلما شديد التمسك بتعاليم دينه والمبادئ التي يقوم عليها. ويتضح ذلك في كثير من مواقفه وملامح سيرته، ومن ذلك ما واجهه في ترجمة ابن الانسان السيد المسيح عليه السلام، من تردد طويل توّجه بقوله: إنني كمسلم لا أوافق المؤلف على ما ذهب إليه في أمر السيد المسيح" الجندي – المحافظة والتجديد ص ٥٧١.

رابعا: الدقة

تتصف مترجمات عادل زعيتر بدقة بالغة، وكان يذهب بعيدا في ترجمته فيغير على المفردات الرصينة، وقد لا نعجب من ذلك، إذ عاش زعيتر في فترة شهدت توجها عاما نحو إحياء التراث واللغة بوجه خاص. وتظهر دقته في انتقاء مفرداته، واختيار معانيه، وضبطه الألفاظ بالشكل، وشرح غامضها، وتنوير بالنص بما يجلو مبهمة، ويفسر غريبه، ناهيك عن تأنّقه في كل عمله. ويتضح هذا المنهج في سيرته وعمله في قول محمد الحلبي صاحب دار إحياء الكتب العربية في القاهرة في حينه "إنني أدير مطبعتنا منذ اثنين وثلاثين عاما، وقد تعاملنا في أثناء ذلك مع عدد كبير جدا من المؤلفين والمترجمين والمحققين من مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية، فلم أجد أدق من الاستاذ عادل زعيتر في عنايته بتصحيح كتبه وسهره عليها وحرصه على إتقانها" الأرناؤوط ص ٣٠ ،١٥.

ويتفق مع الدقة فهم النص والتعمق في ذلك بسبر غوره، والنفاذ غلى روح الكاتب، ومما أثر عن عادل زعيتر قوله بهذا الصدد "إن مهمة المترجم ليست نقل العبارة الأجنبية إلى العربية، بل إن هناك ما هو أهم وأعظم من هذا بمراحل كثيرة، وهو أن ينفذ المترجم إلى روح الكاتب، وأن يفهم شخصية المؤلف تمام الفهم" خورشيد ص ٥٧.

ولأن ينفذ المترجم إلى روح الكاتب يقتضي ألا تكون الترجمة حرفية، ذلك لما بين اللغات من تفاوت في مناهج التعبير وطرق النظم، ولكن عادل زعيتر "كان يلتزم بحرفية النص مع التصرف في حدود الخير بعد قراءة كل المراجع التي تتصل بالكتاب الذي يترجمه" الجندي – تطور ٧٧، حتى لكأنها وضعت أصلا بالعربية "والمترجم البارع هو من ينقل الكتاب إلى لغته وكأنه هو المؤلف" الجندي – تطور ٧٩.

وكان من تمام الدقة في أعماله انه لم يكن يركن في تدقيق مسوداته وتجارب طبعها إلى أي احد كان، وإنما كان يقوم بذلك بنفسه، يقول صديقه محمد علي الطاهر (ص ٣٤٨) في هذا الصدد "وان سألني سائل أين المال الذي قبضه عادل من دور الطبع والنشر مقابل ترجمته تلك المكتبة التي قدمها لأمته، فأني مخبر السائل بأن عادلا كان يدفع قيمة أتعابه إلى شركات الطيران وفنادق القاهرة حين كان يأتيها ويقيم فيها ثلاثة أشهر في كل عام لتصحيح (بروفات) هذه الكتب.. لأن إتقان مترجماته لا يتم في نظره إلا إذا طبعت صحيحة، وأن تطبع أتقن وأجمل طبع".

ولا شك في أن ذلك كله قد اضطره إلى بذل جهود مضنية، وكبده مشقات جساما، لأن الترجمة المحكمة إبداع وأمانة، ناهيك عما كان يقتضيه حرصه على العربية وبعث ألفاظها مع مراعاة موافقتها للذوق والسلاسة، وعما كان يتجشمه جراء ذلك من نفقات إذ يقول "لم نتوخ الربح المادي، وكانت وجهتنا خالصة لوجه الثقافة والأدب وخدمة العرب مع ما كابدنا من جهود عنيفة مضاعفة في سبك عباراتها وجعلها بعيدة عن العجمة والألفاظ الحوشية ومع ما زهدنا عنه في أثنائها من كسب مناله من مهنة المحاماة وغيرها" الجندي – المحافظة والتجديد ص ٥٦٨. وكان يتصل بأصدقائه وغيرهم يستشيرهم ويتحرى بعض المعلومات، فكان بذلك لا يخرج بترجمته على الناس إلا قد أوسعها تمحيصا، وأشبعها مراجعة وتدقيقا ـــراجع جبر – عادل زعيتر وفن الترجمة).

خامسا: التخصص

يعد التخصص سمة العصر الحديث، وهو مفض إلى الدقة والإتقان لا محالة، ذلك بما يتيحه للمرء من تمكن في سبر غور الموضوع. وقد كان عادل زعيتر متخصصا إلى حد كبير في مترجماته، فقد ترجم عن الفرنسية، وفي مجالات متداخلة متناصية في موضوعاتها. يقول حسام الخطيب (ص ٧١، ١١٦) "...سجلت الفرنسية وجودا خاصا عن طريق عادل زعيتر الذي أغنى المكتبة العربية بترجمات من عباقرة المؤلفين الفرنسيين وإذا كانت الترجمات العلمية والوظيفية قد سجلت طغيانا فائقا للغة الإنجليزية فان الترجمات الفكرية والأدبية ظلت تجنح باتجاه اللغتين الروسية والفرنسية"، ويقول في موضع آخر (ص ٨٣، ١٣٩، ١٤٠) "ولا بد من ختام هذا البند حول ظاهرة التخصص الايجابية (في الترجمة) من التذكير بان لهذه الظاهرة جذورا في تاريخ الترجمة الفلسطينية بدأها المترجم الفلسطيني الأول خليل بيدس وتابعها بجدية مثيرة للإعجاب عدد من رجال الرعيل الأول أبرزهم عادل زعيتر (في مجال التاريخ والسياسة والمجتمع) ونجاتي صدقي (في المجال الأدبي).

وكان لسعة ثقافته لا يترجم وحسب، وإنما كان يبدي رأيه مؤيدا أو معارضا بين حين وآخر، فجاءت مترجماته حافلة بآرائه النقدية وبتعليقاته وتصويباته. "إن المتتبع للأثار التي خلفها الاستاذ عادل زعيتر في حقل الترجمة يجد له فيها دورا لا يقل أهمية عن دور الترجمة، ألا وهو دور الناقد النافذ البصيرة، حيث يتصدى للجوانب التي جانب الصواب فيها المؤلف، ناقدا، معللا، معيدا الكاتب والكتاب والقارئ إلى الرأي القوي السديد" (الأرناؤوط ص ٣٦).

سادسا: الكثرة

يمتاز عادل زعيتر عن غيره من المترجمين بكثرة ما ترجمه من الكتب، ولا نعرف من ترجم أكثر مما ترجم عادل سوى خيري حماد، إذ بلغت عدة مترجماته نحوا من مائة كتاب (الخطيب ص ٧١)، غير أن في ضخامة الكتب التي ترجمها زعيتر ما يرقى بجهوده إلى مرتبة عالية، إذ يقع كثير من كتبه في عدة مجلدات.

وبلغ من حرصه على الإكثار انه قال مرة لأخيه أكرم "حين يبلغ ارتفاع كتبي مرصوصة بعضها إلى بعض طول قامتي ينتهي أجلي" فأجابه الأستاذ أكرم "على أن تطبع على ورق رقيق رقة ورق السيجارة، فسره الجواب" الأرناؤوط ص ٣٥، لقد بلغت كتبه ومحبّراته أضعاف طوله، وكان مع كثرة إنتاجه مجيدا أيما إجادة.

وأخيرا، لقد كان عادل زعيتر ظاهرة نادرة، وعلامة بارزة على طريق التحضر العربي المعاصر، عمل في مجالات مختلفة، في المحاماة والسياسة والترجمة، ولم يكن في فكره مقلدا، بل كان مبدعا مجددا وقد وجد في الفكر الغربي المعاصر، لاسيما أعمال جان جاك روسو وفولتير ما رسّخ لديه هو وجيله الأفكار القومية والثورة الاجتماعية والتحرر، مما أدى إلى تكوّن تيار فكري جديد يقوم على أساس من الرابطة القومية، ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت شتفان فلد (ص ٣٨٨) يقول في عادل زعيتر وترجماته "انه مع روسو وفولتير يكون قد اختار خصمين رئيسيين لجمال الدين الأفغاني".

وما نظن عادلا كان يرى فرقا كبيرا بين الرابطتين الشرقية الإسلامية والقومية العربية، وما نظنه عمد إلى ترجمة أعمال فولتير وجان جاك روسو انطلاقا من عداء لجمال الدين الأفغاني وطروحاته الفكرية، أو لفكرة الرابطة الإسلامية، فقد كان "يعجبه التدين في المرء من غير تعصب، وكان محبا للاطلاع على الفقه الإسلامي، ويقرأ القرآن مرة كل عام قراءة تدبر وتفهم، ويقارن بين مختلف التفاسير والسير، وإذا عرضت قضية شرعية كان عادل الحجة التي لا تنازع، وهو إلى تقواه وأدائه للفروض الدينية أداء كاملا، كان نير الفكر إصلاحيّ النزعة، وكان معجبا بالشيخ محمد عبده، وبسعة اطلاع الشيخ محمد رشيد رضا..." الأرناؤوط ص ٣٤.

باختصار، إن عادل زعيتر يمثل بجهوده وتطلعاته مرحلة متميزة من مراحل التحضر العربي في العصر الحديث، ويضاهي في أعماله وآثارها ما أحدثته الترجمة عن اليونانية واللاتينية في العصر العباسي، وما أحدثته حركة الترجمة عن الصربية إلى اللغات الأوروبية في الحقبة الاندلسية من أثر في التحضر الأوروبي في العصور الوسطى مما ترك بعض ظلاله على العصر الحديث، هذا العلم الذي نقل أوروبة وامتداداتها الحضارية نقلة جبارة في المجالات العلمية والاجتماعية والتقنية، ولما كانت حال الأمة الإسلامية على ما هي عليه من التخلف، فقد رأى عادل زعيتر في الفكر الذي أحدث في الغرب تلك الثورة الاجتماعية وذلك التقدم العلمي، رأى فيه فكرا صالحا لأن يحدث في أمته ما يغير كوامنها، ويعجل مسلسل التفاعلات الاجتماعية المفضي إلى تبدل الحال إلى ما هو أفضل، ولذلك فقد بادر إلى نقل أمهات الكتب الفرنسية عن قصد وإصرار، هادفا إلى تنوير العقل العربي ورفد المكتبة العربية بما يثريها، وقد فعل ذلك كله منطلقا من علم جم، ودراية باللغات واسعة. فاستحق بذلك أن يتبوأ مكانة خاصة يمتاز بها عن سائر مترجمي العصر نظرا للدوافع السامية التي كانت تحركه، وللمواصفات الرفيعة التي اتصفت بها أعماله.

· عن دنيا الوطن

المفكر عادل زعيتر.. الغائب الحاضر

د. ايهاب عمرو

سمعت كثيراً عن المفكر الراحل عادل زعيتر، وقرأت كذلك كثيراً من الكتب وعن الكتب التي ترجمها لكبار الأدباء والفلاسفة العالميين مثل مونتسكيو، وفولتير، ولوبون، وجان جاك روسو. وتعد الكتب التي قام الراحل عادل زعيتر بترجمتها من الفرنسية إلى العربية من أهم كتب الأدب والفكر على مستوى العالم، إضافة إلى كونها أثرت المكتبة العربية بمؤلفات في مختلف المجالات كالسياسة، والقانون، والفلسفة، والأدب.

وتصل الكتب التي قام المفكر الراحل عادل زعيتر بترجمتها إلى أربعين كتاباً ما ساهم في إثراء الحركة الثقافية والفكرية في العالم العربي بمؤلفات بالغة الأهمية، كما أسلفنا. ومن تلك الكتب كتاب "حضارة العرب" لجوستاف لوبون الذي يعد أحد أهم المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين وأحد علماء الأنثروبولوجيا والذي أولى اهتماماً خاصاً بدراسات الحضارات الشرقية عموماً، والحضارة العربية الإسلامية خصوصاً.

كما قام المفكر الراحل عادل زعيتر بترجمة كتاب "روح الشرائع"، ويقصد بالشرائع هنا القوانين، للفيلسوف الفرنسي مونتسكيو، صاحب نظرية الفصل بين السلطات، في جزأين منفصلين تناول الجزء الأول منه، من ضمن أمور أخرى، توضيح مفهوم قوانين الطبيعة، والقوانين الوضعية، والحكومة الجمهورية والقوانين، والقوانين المدنية والجزائية وشكل الأحكام وسن العقوبات. وتناول في الجزء الثاني، من ضمن أمور أخرى، صلة القوانين بالتجارة من حيث طبيعتها وأنواعها وتوضيح مفهوم التجارة وروحها، وحرية التجارة، وأنواع القوانين التجارية التي سادت آنذاك كقانون "جنيف" الذي حظر تولي المناصب القضائية على أبناء من عاشوا أو ماتوا مفلسين ما لم يؤدوا ديون آبائهم، وقانون "رودوس" الذي وضع لجمهورية كانت قائمة على التجارة والذي حظر على الابن إعفاء نفسه من دفع ديون والده عند تنازله عن ميراثه، وقضاة التجارة الذين يتولون الفصل في المنازعات التجارية كون أن التجارة لا تحتمل الشكليات ما يستوجب سرعة الفصل في تلك المنازعات الناشئة عنها.

وأكثر ما استوقفني في الكتب التي قام الراحل عادل زعيتر بترجمتها هو كتاب "العقد الاجتماعي" الذي سمي لاحقاً "انجيل الثورة الفرنسية" للأديب والفيلسوف الفرنسي الكبير جان جاك روسو الذي عد بحق من أهم الكتاب في عصر النهضة "التنوير" في القارة العجوز، حيث قام المفكر الراحل زعيتر بترجمته بطريقة دقيقة وانيقة تعكس قدرات عز نظيرها في اللغة والفكر والأدب. إضافة إلى القدرة على الصياغة بأسلوب مشوق للقارئ/ة مع إضافات كانت ضرورية في بعض الأحيان لتوضيح الأفكار الرئيسية لذلك الكتاب الهام الذي عد، إضافة لما سبق، من أهم المراجع ذات العلاقة بالفكر القانوني كونه تضمن المبادئ المحددة للحقوق والواجبات التي تقوم عليها العلاقة بين الدولة من جانب، ومواطنيها من جانب آخر.

ويلاحظ قيام المفكر الراحل زعيتر باستخدام التشكيل لبعض الكلمات التي قد تختلط على القارئ/ة ما أضفى وضوحاً أكبر وسهل من مهمة القارئ/ة في الحصول على معلومة مبسطة ودقيقة. وكل ذلك أضفى على الكتب التي قام بترجمتها بعداً جمالياً أخاذاً إضافة إلى بعدها العلمي التأصيلي ما يمكن القول معه أنه استحق بجدارة لقب "شيخ المترجمين العرب" الذي أطلقه بعض المؤرخين والأدباء والمؤلفين العرب عليه في القرن الماضي.

مما سبق، يتضح لنا حجم الجهد الذي بذله المفكر الراحل عادل زعيتر في ترجمة أهم كتب الأدب والفكر والفلسفة في العالم إلى العربية ما سمح للأجيال المتعاقبة في العالم العربي بمواكبة أهم مؤلفات ومساهمات الأدباء والفلاسفة والمفكرين العالميين على الأصعدة كافة منذ قرون مضت. وذلك يدل على الدور التنويري الذي يمكن للمؤلفين والأدباء والكتاب العرب القيام به من أجل المساهمة في تشكيل حالة فكرية جامعة في المجتمعات العربية من جانب، والمساهمة في البناء العلمي والفكري والحضاري والانساني في شتى الحقول والعلوم من جانب آخر.

· عن موقع عمون

رصانة المترجم الفسطيني عادل زعيتر ودقته وأمانته

شكيب كاظم

يوم انجزت قراءة رواية (الالهة عطاش) لاديب فرنسا الكبير اناتول فرانس (١٨٤٤-١٩٢٤) التي تولت مكتبة النهضة المصرية نشرها بطبعتها الاولى والاخيرة سنة ١٩٥٢، كتبت على اصل الكتاب ما ياتي (انتهيت من قراءة هذه الرواية الصعبة الاسلوب، بسبب نهج مترجمها المرحوم عادل زعيتر الذي يميل الى التفاصح. رواية تظهر قسوة الانسان وظلمه، ومآسي الثوارت وانطلاق الغوغاء والرعاع، يعملون ما يحلو لهم وقساوة (ايفارست غملان) حتى على شقيقته وزوجها، وتلك النهاية الدامية التي انتهى اليها، رواية فيها الكثير من الصور والعبر لمن يريد ان يعتبر).

من الرئيس القوتلي
هذا هو عادل زعيتر

لو كانت الأحجار تعار

رواية (الالهة عطاش) من الادب الذي ارخ وقائع الثورة الفرنسية التي نشبت في الرابع عشر من تموز سنة ١٧٨٩، ضد حكم الملك الفرنسي لويس السادس عشر، وانتهت الى اعدامه وزوجته ماري انطوانيت، وكان من نتائجها ابتكار اداة قصل رقاب الناس بـ(المقصلة) الجيلوتين!! فضلا على رواية (قصة مدينتين) للروائي جارلس ديكنز التي قرأناها بالانكليزية نحن طلبة الثانوية في سنوات الستين من القرن العشرين، كتابا مدرسيا مقررا، والمقصود بالمدينتين: لندن وباريس، اذ تجري حوادث الرواية في هاتين المدينتين، قبل اندلاع الثورة الفرنسية واثناءها وما تلاها من ايام.

لقد استرعى انتباهي، وانا اقرا في نهاية الكتاب الرواية ثبتا بما كان قد ترجمه المترجم الفلسطيني البارع عادل زعيتر، اذ ترجم احد عشر اثرا من اثار الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون، الذي طرق اسمه سمعي وذهني، من خلال (المدخل في تاريخ الحضارة العربية) للباحث العراقي الرصين ناجي معروف – رحمه الله- الذي كان يشيد بأرائه المنصفة للعرب والمسلمين، لدى مناقشته لاراء مواطنه (ايرنست رينان) (١٨٢٣-١٨٩٢) غير المنصفة، كان الكتاب مقررا على طلبة الصف الرابع الادبي في بداية سنوات الستين من القرن العشرين، فضلا على ترجمته سبعة من كتب الباحث الالماني اميل لودفيغ وكتب اخرى لأميل (درمنغم) وسيديو واينسن، واضعين في الحسبان ان هذه الترجمات التي نافت على العشرين مؤلفا، هي ما انجزه المترجم الحاذق عادل زعيتر حتى سنة ١٩٥٢ سنة نشر رواية (الالهة عطاش) وقد امتد به العمر بعد ذلك خمس سنوات اذ فاجأته نوبة قلبية وهو يواصل ترجمة كتاب (مفكرو الاسلام) للباحث الفرنسي (كارادفو) يوم ٢١/ من تشرين الثاني /نوفمبر/١٩٥٧ واذ احس بتعب نادى زوجته لتسعفه بقدح ماء واذ جاءته به، وجدته قد فارق الحياة! كما يذكر ذلك الاديب المصري الكبير الاستاذ وديع فلسطين في الجزء الاول من كتابه (وديع فلسطين يتحدث عن اعلام عصره) وفي الفصل الذي اداره للحديث عن المترجم عادل زعيتر.

وانا اقرأ هذا الفصل الممتع والمفيد، وقفت عند اخلاق هؤلاء الرجال الاماثل، المخلصين والجادين واذ يقص علينا الاستاذ الوديع، ان مكامن دأب هذا المترجم الناسك، ان ينجز ترجماته في مدينته نابلس صيفا، كي ينتقل الى القاهرة شتاء ليطبع هذه المصنفات، ويبقى في المطبعة منذ الصباح حتى اخر النهار، حيث تغلق المطبعة ابوابها، يظل طوال هذه الساعات الطويلة ولايام عديدة يواصل مراجعة تجارب الطبع، والتاكد من خلوها من الخطأ الطباعي، لا بل يبقى يغير بعض المفردات، بحثا عن الابهى والاجدر، ليذكرني بالجواهري الكبير الذي يظل يتابع قصائده المرسلة للنشر في الجرائد حتى ساعة متاخرة من الليل، مضيفا، حاذفا، والامر ينطبق على القاص الانيق محمود عبد الوهاب وما يقصه علينا القاص والروائي الراحل مهدي عيسى الصقر عنه في كتابه الجميل (وجع الكتابة. مذكرات ويوميات) الصادر بطبعته الاولى عن دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد سنة ٢٠٠١. اذ يظل يتصل به من البصرة، طالبا منه ابلاغ الاستاذ ماجد السامرائي يوم كان رئيسا لتحرير مجلة (الاقلام) حذف كلمة! واضافة اخرى، لدقة تقترب من الهوس المعذب والجميل في آن معا!

ولان الانسان نسّاء والعين موهمة، يحدث ان تفلت من رقابة عادل زعيتر بضع كلمات، ويحصي اثنتي عشرة خطأ من كتاب (البحر المتوسط) لاميل لودفيغو عدد صفحاته تسعمئة صفحة، تصور ايها القارئ مدى بساطة الامر، لكن عادل زعيتر، يصر على ادراج قائمة بهذه الاخطاء الطباعية، في حين لا يوافق صاحب دار المعارف في القاهرة التي تتولى طبع الكتاب شفيق متري، على ذلك عادا ذلك انتقاصا من رصانة دار النشر، فيقترح عادل زعيتر حلا وسطا ان يتحمل هو لا الدار مسؤولية الخطأ، كان هذا مقترحه لا مقترح شفيق متري، فصدر الكتاب بهذا التوضيح، وكأننا ازاء ملائكة، كتب زعيتر هذا الايضاح الاعتذاري (ظهرت الاغليط القليلة الاتية تصويباتها في هذا الكتاب الضخم وقوامه ٩٠٠ صفحة) الذي طبع باشرافي في خمسة اسابيع، فانشر هذه التصويبات مع الاعتذار لدار المعارف التي اسجل لها شكري) تراجع من ٣١٠ من الكتاب وما دمت قد ادرت حديثي هذا لاستذكار هذا المترجم البارع، والحديث عن دقته ورصانته، فبودي ان اذكر انه خلف نجلا هو (وائل) اشتغل بالسياسة والدفاع عن قضية الشعب الفلسطيني في بناء دولته، الذي اغتاله الموساد الاسرائيلي بداية عام ١٩٧٣، اذ كان مديرا لمكتب حركة (فتح) في العاصمة الايطالية، روما، حينما كان يهم بدخول المصعد نحو شقته اطلقوا عليه اثنتي عشرة رصاصة اخترقت ظهره ومازلت احتفظ بصورته التي نشرتها مجلة (اليقظة) الكويتية بعددها الصادر يوم الاثنين ١٩٧٣/١٠/١٥ وبالعدد المرقم ٣٢٩، لقد سقط ارضا وهو يحتضن اوراقا لعلها جريدة او مجلة، ودمه سال على الارض القريبة التي توسدها وائل عادل زعيتر، فضلا على صورة اخرى تجمعه بصديقه اديب ايطاليه الكبير (البرتومورافيا) الذي كان متعاطفا مع امال شعب فلسطين، وكان الموساد قد خاض حملات ملاحقة واغتيال ضد رموز فلسطينية في العواصم الاوربية، ردا على الهجوم الذي نفذه عناصر من منظمة ايلول الاسود، ضد البعثة الاسرائيلية الرياضية المشاركة في الدورة الاولمبية العشرين، التي افتتحت اعمالها في مدينة ميونخ الالمانية يوم السبت السادس والعشرين من شهر اب / سنة ١٩٧٢ واذ هاجم عناصر من منظمة ايلول الاسود مقر بعثة الفريق الاسرائيلي في القرية الاولمبية بميونخ، يوم الثلاثاء الخامس من ايلول، وقتلوا اثنين من اعضائها،واحتجزوا تسعة اخرين، وطالبوا باطلاق سراح مئتي سجين في السجون الاسرائيلية، بضمنهم الياباني (اكوماتو) من منظمة الجيش الاحمر الياباني المحكوم بالسجن المؤبد لاشتراكه واثنين من زملائه قتلا في الهجوم على مطار اللد الاسرائيلي يوم الاربعاء ١٩٧٢/٥/٣١، الا ان قناصة تابعين للشرطة الالمانية فتحوا النار على الخاطفين الفلسطينين بغية تخليص المخطوفين الاسرائيليين مما ادى الى نشوب معركة قتل فيها المخطوفون التسعة وخمسة من الخاطفين، فيما القى القبض على الاخرين، هذه العملية كان دافعا لقيام الموساد الصهيوني باغتيال وائل عادل زعيتر، وقبله محمود الهمشري ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس، الذي جرح برسالة ملغومة انفجرت بين يديه، وتوفي يوم الاثنين ١٩٧٣/١/٨، فضلا على اغتيال الدكتور باسل رؤوف الكبيسي مدير مكتب الجهة الشعبية لتحرير فلسطين في باريس، والذي شاركت في تشييعه صباح يوم الجمعة ١٩٧٣/٤/١٣ من دار ابيه بالوزيرية حتى مثواه في مقبرة الشيخ جنيد بالكرخ، واغتيال مدير مكتب الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية الدكتور انيس صايغ برسالة ملغوفة، فضلا على قائد قوات منظمة الصاعقة، محسن ابراهيم على شواطئ الريفيرا! ويوم سمعت خبر اغتياله من اذاعة مونت كارلو ليلا، سألت نفسي: ما شأن المناضلين اصحاب القضية بشواطئ الريفيرا ومنتجعاتها الزاخرة بالقيان والحسان، لاسيما وان محسن ابراهيم كان يؤم المنقطة وحيدا، لاشك انها لحظة من لحظات الضعف الانساني المميتة!.

٠ من ارشيف الراحل شكيب كاظم

ذاكرة لعادل زعيتر

منصور الجميل

في مرحلة شهدت مخاضاً عسيراً بين انهيار الدولة العثمانية وتقاسم بلاد الشام بين الإنكليز والفرنسيين واحتلالها، كان عادل زعيتر أحد أركان النخبة المتعلمة التي آمنت بحق العرب في نيل استقلالهم ضمن دولة حديثة، وكان قد مثّل مدينته نابلس في "المؤتمر السوري العربي" الذي عقد عام ١٩٢٠ لتأييد هذا الحق. أسّست تلك الأحداث وعي السياسي والمترجم الفلسطيني (١٨٩٧ – ١٩٥٧) الذي تعلّم التركية والألمانية والإنكليزية والفرنسية، وربما شكّلت الأخيرة عاملاً أساسياً وراء دراسته الحقوق في باريس لاحقاً، وساهمت في اختياره لأبرز مؤلّفات الفلسفة والتاريخ والحضارة ليتقلها عن الفرنسية، لاعتقاده بأهمية العلم والأدب في تحقيق النهضة المنشودة.

هذا العام، صدرت طبعة جديدة من ترجمته كتاب "حياة الحقائق" للمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون عن "دار الرافدين"، وهو واحد من حوالي أربعين كتاباً ترجمها الراحل وصدرت في طبعات مختلفة عن أكثر من دار نشر عربية، أغفل معظمها ذكر تاريخ الطبعات وحقوق ملكيتها الفكرية، بل ظهرت ترجمته لكتاب "تاريخ العرب العام" للمستشرق الفرنسي ل. أ. سيديو عام ٢٠٠٢ باسم مترجم آخر! وهي ليست حالة السطو الوحيدة على ترجمات زعيتر.

يدرس "حياة الحقائق" مكوّنات المعتقدات الدينية والعاطفية والجمعية، وكيفية تتحوّل المعتقدات الفردية إلى جمعية، والأخلاق باعتبارها العنصر الرئيس في تكوين المعتقدات الدينية، إضافة إلى الحياة العقلية التي تشكل جذور العلم؛ وأسس التفكير الفلسفي والوصول إلى منابع الحقيقة العميقة.

لم يلق زعيتر الذي تفرّغ للترجمة منذ عام ١٩٤٦ وحتى رحيله، اهتماماً يضع ترجماته ضمن مشروع متكامل حيث توضّح الملاحظات التي بثّها في مراسلاته ومقالاته العديد من آرائه في الترجمة ومنهجيته التي اعتمدها، والمضامين التي قدّمها إلى المكتبة العربية، كما تربط بين سيرته كشخصية منتمية إلى فضائها العروبي وبين خياراته في النقول.

وعبّرت ترجماته عن الفرنسية، والقليل منها عن الألمانية، عن سعة اطلاعه في حقول معرفية متعدّدة وفلسفته التي قامت على أهمية نقل الفكر الغربي الحديث في لحظة هيمنت فيها القوى الاستعمارية على العالم العربي، وأفشلت جهود استقلاله وتحديث مجتمعاته.

في مقدمة ترجمته لكتاب "حضارة العرب" لـ غوستاف لوبون أيضاً، يدوّن زعيتر "هكذا أكون قد أدخلت كتب لوبون المهمة الآخذ بعضها برقاب بعض إلى العربية إدخالاً يخيّل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب، فلوبون واضع سفر "حضارة العرب".

يقول يحيى جبر وعبير أحمد في بحثهما المشترك: "كان لسعة ثقافته لا يترجم وحسب، وإنما كان يبدي رأيه مؤيداً أو معارضاً بين حين وآخر، فجاءت مترجماته حافلة بآرائه النقدية وبتعليقاته وتصويباته"، ويضيفان: "كيف كان زعيتر يختار المادة التي يزمع ترجمتها؟ وكيف كانت تتم الترجمة؟ يجيب شقيقه التربوي والسياسي أكرم: كان عادل في اختياره كتاباً للترجمة يُعنى بأن يكون مما تحتاج إليه الأمة العربية، وألا يكون له نظير في لغتها...".

من المؤلفات التي ترجمها زعيتر: "العقد الاجتماعي" و"التربية" و"أصل التفاوت بين الناس" لـ جان جاك روسو، و"الحياة والحب" و"البحر المتوسط" و"كليوبترا" و"ابن الإنسان" لـ إميل لودفيغ، و"الرسائل الفلسفية" و"التفاؤل" لـ فولتير، و"روح الشرائع" لـ مونتسكيو، و"حياة محمد" لـ إميل درمنغم، و"حديقة أبيقور" و"الآلهة عطاش" لـ أناتول فرانس، و"مفكرو الإسلام" و"الغزالي" و"ابن سينا" لـ البارون كرادوفو.

جان جاك رُوسُو
إميل أو التربية

إميل لودفيغ
بسمارك

إلى جانب "روح الثورات والثورة الفرنسية" و"روح الجماعات" و"السنن النفسية لتطور الأمم" و"روح التربية" و"روح السياسة" و"فلسفة التاريخ" و"اليهود في تاريخ الحضارات" و"حضارة العرب" و"الآراء والمعتقدات" و"حضارة الهند" و"روح الاشتراكية" لـ غوستاف لوبون.

٠ عن العربي الجديد

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

في ذكرى عادل زعيتر

وديـــع فلسطين

سنوات كثيرة تقضّت على مغيب علم الضاد المرفوع وحجتها المأمول وإمامها الكبير وعلامتها الجليل عادل زعيتر، الذي أطلعت دنيا العروبة لتفاخر به على مدى الدهر وأنجبته مدائن المقدس لتزهى به على العالمين. فقد كان اليوم، الحادي والعشرين من شهر نوفمبر لأربعين سنة خلت يوما أغبر في حياة الفصحى، إذ انطوت فيه صفحة الجهاد الأدبي المضني لهذا العالم الكبير وهو في أوج علمه وقمة نشاطه وذروة آماله المعقودات. فخسرت الضاد في عادل زعيتر طودا من المعارف وهرما من غزارة العلم. وحجة لا يقل شأنا عن العباقرة الغربيين الذين قدّمهم إلينا من خلال مؤلفاتهم، وعرّفنا بهم و أوقعنا على كنوزه، ودلّنا على تراث كان عنّا مغيّبا.

عرف عادل زعيتر منذ باكورة عمره أن دنيا الفكر أعمر الدنى جميعا، وأن رسالة الثقافة أخلد الرسالات طرّا، وأن مباحث العلم أقدس المباحث بغير استثناء، فاختار لنفسه هذه القيم الباقيات الفارعات، وهجر المحاماة وهي مقبلة عليه برفدها الوفير ومجدها الميسور، واعتزل التدريس الجامعي وشأوه المعهود، وانصرف عن حياة السياسة بخيرها القليل و غرمها الكثير وعاش مع الكتب في غرفة تضم صفوة فكر، ويختار منها نفائس النفائس، ثم يعكف على نقلها إلى الضاد بأمانة الرسل وبسالة الجنود في ميادين الاستشهاد، يدين له البيان المجلو مطوعا بين يديه، وتنصاع له العبارة البليغة انصياع الماء في الجدول الثقيف... ومحصوله يأتي في أوانه دائما كل عام كتابان أو ثلاثة كتب، لا تقوى على إخراج مثلها مجامع بأسرها، وهي تؤوي فحولا من كبار المترجمين ولو عقدوا الخناصر، وقسموا العمل بينهم.

هذا عظيم من عظماء أمته المخلدين، ازدرى وجاهة الحياة العامة، واستدبر لذاذات الحياة العارضة، ووأد بين جنيه مطامع الأرض وتُرّهاتها، وحصر دنياه كلها في قرطاس ومحبرة وكتاب ومطبعة، وهي دنيا .لو يعلم الناس. أرحب من أن تسع الدنى جميعا، لأن الفكر أزليّ أبديّ سرمديّ باق، ولأن الحياة كانت في بدئها كلمة، وستكون في خاتمتها كلمة، وكل الحضارات منذ فجر التاريخ، بل قبل مجيء التاريخ، قوامها الكلمة . النيرة الموحية الملهمة الخيّرة النافعة، ولولا الكلمة، لجهل الناس حقيقة أنفسهم، ولعزّ عليهم أن يدركوا شيئا من ألغاز الكون من حولهم، وبفضل الكلمة، نستشرف إلى عالم أفضل ونرود كل مجهول خفيت عنّا معالمه.

فلا غروَ أن يُفني عادل زعيتر الماجد المجيد عمره كلّه في سبيل الكلمة. وأية كلمة؟ إنها الكلمة المثقفة، الكلمة الدالة، الكلمة التي تفتح كُوى العقل على مراتع الخير والرخاء، الكلمة التي تمكث في الأرض وتنفع الناس، فقد كان أمام عادل زعيتر صنوف وصنوف من المؤلفات، منها الروايات الرخيصة السريعة الرواج، ومنها الدراسات الرصينة التي تستهوي قلة من زبدة المختصين وأهل الرأي. وكان في وسعه اجتناء ثروات سريعة من ترجمة تلك الروايات الرخيصة التي تطلبها السوق وتلحّ في الاستزادة منها، ولكنه اختار أوعر الطريقين، وعكف على شوامخ الكتب وبوانخها يترجمها إلى الضاد الشريفة: ترجم لمونتسيكو، وجان جاك روسو، وفولتير، وكارديفوا، ولوبون، وريتان، ولودفيغ، ودرمنغم، وسيديو، وحيدربامات، واناطول فرانس، وبوتول، وايسن، وكلها كتب تتناول المباحث الحضارية والتراث الإنساني والتاريخي والديني، والمذاهب الاجتماعية والنفسية للأمم، وتراجم الأعلام وفلسفات الفقهاء واتجاهات التربية. وإذا كُنت كقارئ عادي أحمل لعادل زعيتر أسمى آيات الإعظام على فضله العلميّ السخيّ، فإنني كمترجم عانى مشاق النقل والتعريب، أرفع عادل زعيتر إلى مراتب قلّ أن يبلغها غيره من عتاة المترجمين في أي لغة، سواء من حيث ضخامة العمل الذي أنجزه ولم يُمهله القدر لإتمامه، أو من حيث الجودة في الاختيار والإبداع في الترجمة والإتقان في إخراج كتبه مشكولة مضبوطة محققة الأعلام والمواقع، بحيث تستعصي على الناقد ولو كان أزرق الناب طويل الباع.

إن ذكرى عادل زعيتر إذ تطوف بنا في هذه الأيام تجدد فينا لوعة الأمس على فقده، وتعيد إلينا صحائف مجده منشورة مرفوعة، وتنبهنا إلى أن هذا الرجل العظيم الذي خلت حياته من كل أسباب التكريم، خليق بأن تتسابق أمم العرب والإسلام جميعا إلى تخليد ذكراه وتمجيد أعماله والحفاظ على تراثه المخطوط والمطبوع. فقد كان عادل زعيتر جامعة تؤمها أفواج وأفواج من طلاب العلم، وسيبقى باب هذه الجامعة مفتوح المصاريع ما دامت بين أيدينا مُتَرجمات عادل زعيتر الفاخرة (حضارة العرب) و (حضارات الهند) و (روح الشرائع) و (البحر المتوسط) و (النيل) و (السنن النفسية لتطور الأمم) و (تاريخ العرب العام) و (تلماك) و (بسمارك) و (نابليون) و (كليوباترة) و (حياة محمد) و (ابن خلدون) و (العقد الاجتماعي) و (ابن رشد والرشدية) وغيرها من المؤلفات التي نيّفت على الأربعين وتعددت أجزاؤها وطبعات بعضها.

إن عادل زعيتر بيننا اليوم بروحه، وبينا بقلمه النضير وفكره البصير ونتاجه الغزير، وبيننا بمآثره المخلّدات ومفاخره الباقيات. فلئن كان قد أبهظ كاهل الأمة العربية بديونه وأفضاله، فلا أقل من أن نذكره يوم وفاته تحية ووفاء وتكريما وإجلالا وإعظاما، وان نضع على قبره لا وردة تذبل، بل عاطفة من الحب تتجدد وتتأجج، وأن نردد فيه آيات العزاء لأسرته الصغيرة ولأسرة الضاد الكبرى في أمصارها وأقطارها ورحم الله نابغة العرب عادل زعيتر وأنزله أكرم المنازل في بساتين جناته.

٠ عن مجلة الهلال